بلاغة الخطاب القرآني ومناسبته لأحوال التلقي في سورة الفاتحة

فضل الله عبد الرزاق محمد قطران

أستاذ البلاغة وعلم النص المساعد

جامعة عمران، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية التربية والألسن – جامعة عمران

ملخص الدراسة

إنَّ موقع سورة الفاتحة من النص القرآني، ومشروعية قراءاتها المتكررة في عدد من المناسبات الشرعية واستحضار مضمونها، أوحى بمقاربة السورة والوقوف لدى تعدد الدلالات التي يحتويها نص السورة، بما يتيح مناسبتها لأحوال المتلقي المتفاوتة، وعناصر التلقي المختلفة، وأجيال التلقي المتعاقبة.

وقد هدفت هذه الدراسة إلى مقاربة القيم والمناسبات الدلالية القائمة بين وحدات نص السورة وأسرار ترتيبها، والوقوف على تفاوت تلك القيم المستنبطة من السورة بناء على تفاوت أحوال التلقي، وتناول المزايا التي اتسمت بها السورة وجعلت منها عتبة للنص القرآني، والتطرق للقيم الخطابية والسلوكية التي تضمنتها السورة، مع بحث المناسبات الدلالية التي تقوم بين وحدات نص السورة؛ للكشف عن منابع السحر القرآني ووجوه إعجازه البلاغية في هذه السورة العظيمة، وتجلية جانب من جوانب بلاغة النص القرآني، وسر من أسرار خلوده، والكشف عن الدلالات المتعددة التي يزخر بها نص سورة الفاتحة.

وقد قسمت الدراسة إلى: مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

وكانت هذه المباحث على النحو الآتي:

- فواتح الفاتحة.
- القيم الدلالية وأحوال التلقي.
- البعد القِيَمِي في النص.
- المناسبات الدلالية في ترتيب وحدات النص.

المقدمة:

لقد اقتضت حكمة الله أن يؤيد دعوة كل نبي بمعجزة تكون أمرًا خارقًا لمألوف العادات، ناقضة لها، وأن تكون من قبيل ما استحكم في ذلك الزمان، واشتهر فيه، وغلب أمره عند الخاصة، وعظم شأنه في نفوس العامة، ولذلك كانت معجزة موسى –عليه السلام– عصا تنقلب حية، ويدًا تخرج بيضاء من غير سوء؛ لأنه كان أعجب الأمور وأغربها عند قومه السحر. ومعجزة عيسى –عليه السلام– إحياء الموتى وإبراء الأكمه، إذ علا شأن الطب في عهده وعند قومه. أما محمد –صلى الله عليه وسلم– فقد بعث في قوم أهل بيان، فتحت لهم البلاغة رواقها، وشقّت لهم الفصاحة نطاقها، فكثر شعراؤهم، وساد خطباؤهم، وتربعت أمتهم على عرش الفصاحة والبلاغة، وملكت ناصية البيان؛ ذلك لأنها الطريقة الوحيدة التي تلائم أحوالهم وظروفهم المعيشية الصعبة؛ إذ كان الترحال دأبهم بحثًا عن الماء والكلأ، يقطنون إذا وُجِد، ويظعنون إذا افْتُقِد، لذا كانت اللغة الرفيق الذي يكون معهم حيثما حلّوا وأينما ارتحلوا، فبرعوا فيها، وفاق بيانهم جميع أمم الأرض، فكانت معجزته "القرآن" بلسان عربي مبين، دمغ ببلاغته أئمة الفصاحة الذين اعتقدوا أنهم لا ينازعون في هذا الأمر، فقد عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه، ومما زاد في تحيرهم وذهولهم أنه أنزل بلغة هي لغتهم، يتلوه عليهم رجل منهم، فانقسموا في ذلك شيعًا، وذهبوا في أمره طرائق قددا.([1])

ومع هذا التخبط وتلك الحيرة فقد فتن الكثيرون ببيانه، وسحر أسلوبه وجمال تعبيره، بأن تذوقوا بحاستهم الفنية جماله الفني الساحر، وأحسوا تأثيره المباشر على قلوبهم، وتحسسوا أثر سلطانه العجيب على نفوسهم، تساوى في ذلك من آمن ومن عاند([2]).

وللخطاب في العربية وجوه تعنى بتحري مناسبة الخطاب للمخاطَب، وهو ما يعرف بمقتضى الحال؛ حيث يراعي المتكلم حال المخاطب، إذ نرى في الإسناد الخبري مراعاة مختلف الأحوال، فلكل من خالي الذهن والمتردد والمنكر خطاب يختلف عن غيره، وقد بين ذلك أهل العلم، وبينوا

[1]) الإعجاز النفسي في الخطاب القرآني، ص أ.

[2]) المرجع نفسه، ص أ.

كذلك تنزيل أحد الثلاثة منزلة غيره، وذكروا أغراض ذلك، وأن حال المخاطب استدعى ذلك التنزيل. هذا من جانب الخبر، وفي جانب الطلب يراعي الخطاب كذلك حال المخاطب من وجوه، منها ما يتعلق بشأن المخاطب نفسه، أو بشأن الأمر الذي خوطب من أجله، إذ إن طلب شيء من المخاطب يحتاج إلى مراعاة أمور أحدها: حال المخاطب وما هو عليه من اهتمام بالأمر الذي خوطب من أجله، والثاني: منزلة المخاطب بالنسبة للخطاب، والثالث منزلة المتكلم بالنسبة للمخاطَب([٣]). وقد روعي ذلك في كل الأساليب القرآنية، واستعمل في كل سياق ما يناسب ومقتضى الحال الذي قيل من أجله.

ومعلوم أن النص القرآني نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في حوادث خطابية متفرقة، وجعلت سورة الفاتحة في مستهل النص القرآني وفاتحته، وقد اقتصرت الدراسة على هذه السورة؛ لأنها تمثل عتبة النص القرآني التي افتتح بها كتاب الله في الترتيب المصحفي الخالد، كما أن السورة تعتبر أول ما يطالعه المقارب للنص القرآني، ويرددها المكلف في عدد الشعائر التي يقوم بها، فتختلف أحوال المتلقين في مقاربتهم إياها، وبالتالي ينعكس ذلك الاختلاف على تفاوت القيم الدلالية التي يستنبطونها من السورة.

أهداف الدراسة:

تأتي هذه الدراسة رغبة في البحث عن وجوه مطابقة نص السورة لأحوال المتلقين المختلفة، والوقوف على تفاوت القيم الدلالية المستنبطة من السورة بناء على تفاوت أحوال التلقي، وتناول المزايا التي اتسمت بها السورة وجعلت منها عتبة للنص القرآني، والتطرق للقيم الخطابية والسلوكية التي تضمنتها السورة، مع بحث المناسبات الدلالية التي تقوم بين وحدات نص السورة؛ للكشف عن منابع السحر القرآني ووجوه إعجازه البلاغية في هذه السورة العظيمة.

ولتحقيق هذه الأهداف قام الباحث بالإجراءات الآتية:

- فضَّل الباحث الانطلاق من سياقات السورة بحسب تواليها التنزيليّ؛ بدءًا بالتسمية التي تعد جزءًا منها حتى نهاية السورة؛ لضمان شمولية الدراسة لجميع الآيات وعدم تجزئتها.

[٣]) مجازات النداء وحقيقته وأغراضهما في الخطاب القرآني:١٦٢.

- تحليل نص السورة بالاعتماد على التحليل البلاغي القائم على ربط القيم الدلالية بمقتضى أحوال المتلقين لوحدات النص، إذ يمثل البحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال محورًا مركزيًا في الدراسات البلاغية على مختلف نصوصها، مع رفد ذلك التحليل بما استجد من رؤى التحليل الأسلوبي والتداولي الذي يتلاقى مع رؤية بلاغتنا العربية وما تأصل في تراثنا العربي من تلك الأدوات، مما يجعل من الأهمية أن تدرس لغة القرآن الكريم وأساليبه وفق تلك المعطيات.

الدراسات السابقة:

لم تحظَ هذه السورة العظيمة بدراسة مستقلة تركز على بلاغة الخطاب القرآني ومناسبته لأحوال التلقي، وكان جل عناية الباحثين منصبًا على إظهار إعجاز القرآن الكريم في جوانب علوم البيان والمعاني والبديع، وبعض نواحي الأسلوب وقيمه الجمالية، ومن هذه الدراسات:

– (أضواء على الإعجاز البلاغي في سورة الفاتحة) للباحث صالح بن محمد الزهراني، وقد رصد البحث بعض الأسرار البلاغية في كلمات السورة وتراكيبها، وتعرَّض للفنون البلاغية مثل: حسن الافتتاح، والإيجاز، وأسلوب القصر، والتأكيد، والالتفات، والإطناب، والتجانس، والفواصل المؤثرة، والاستعارة، وغيرها. ولم يكن اهتمامها منصبًا على جوانب ربط الخطاب بمتلقيه بفئاته: (النبي عليه الصلاة والسلام/المتلقي الأول، المؤمنين/المتقبلين، ثم المعارضين باختلافهم من الكفار واليهود والنصارى– غيرهم.

– (المواءمة والمفارقة في سورة الفاتحة دراسة أسلوبية) للباحثين باوة كريم مولود وصباح كريم مولود، وقد هدفت إلى دراسة السورة في مستوياتها الأسلوبية: (الصوتية، التركيبية والدلالية)، وشأن هذه الدراسة شأن الدراسة السابقة في عدم اهتمامها بجانب التلقي.

– (البلاغة في سورة الفاتحة دراسة تحليلية بلاغية) للباحث محمد سبحان يحيى، وقد هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن النواحي البلاغية في السورة في دراسة أساليب الخبر والإنشاء، إلى جانب دراسة مقيدات الجملة كالنعت والعطف والبدل– كما أطلق عليها– ثم دراسة الوصل والفصل وأحوالهما في السورة، واتسمت الدراسة بالمرور السريع على هذه الجوانب دون التعمق فيها واستكناه أبعادها الدلالية، بينما لم ينل جانب التلقي أي نقاش أو اهتمام.

كما أن السورة قد لاقت اهتمامًا كبيرًا من الباحثين في أبحاثهم العامة التي درست القرآن الكريم عمومًا من أمثلة:

- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د. فاضل السامرائي.
- اتساع الدلالة في الخطاب القرآني د. محمد نور الدين المنجد. وغيرها.

* وقد جاءت الدراسة في مقدمة، وخاتمة، أربعة مباحث؛ هي:

– فواتح الفاتحة.

– القيم الدلالية وأحوال التلقي.

– البعد القيمي في النص.

– المناسبات الدلالية في ترتيب وحدات النص.

المبحث الأول: فواتح الفاتحة (عتبات العتبة):

ثبت أن للسورة عددا من الأسماء التي قد تعد عتبة نص السورة، إلا أن الأسماء الأشهر التي صح ورودها عن النبي صلى الله عليه وسلم هي ثلاثة أسماء، وهي فاتحة الكتاب؛ كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)[٤]، وهناك كثير من التعليلات لهذه الأسماء، من أبرزها إزاء فاتحة الكتاب أنها سميت بالفاتحة لأنها مفتتحه ومبدؤه وديباجته التي استهل بها، وهو ما يؤسس لأن يكون ذلك الاسم عتبة نص السورة،

[٤] الحديث عن عبادة بن الصامت، ينظر: صحيح البخاري، ١/ ١٥١ – ١٥٢ رقم الحديث (٧٥٦).

كما يؤسس بدلالته لجعل السورة عتبة النص القرآني، وأم القرآن أو أم الكتاب؛ فقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي خداج)[٥]، وسميت بذلك لاشتمالها على مجمل مقاصد القرآن ومضامينه، وهذا الاسم يطل بالمدلول القرائي الذي ينم عن البعد الخطابي، ليضاهي اسم (القرآن) الذي يطل بذلك البعد في عموم البيان القرآني، وأما اسم (أم الكتاب) الذي أطلقه عليها من أنزلت عليه السورة، فهو يطل بالبعد النصي في السورة، على غرار ما يضفيه اسم الكتاب الذي أطلقه البيان القرآني على نصه من بعد نصي، والسبع المثاني؛ الذي ورد في النص القرآني:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الحجر ٨٧. وورد تفسيره في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلّى أن رسول الله ﷺ قال: (الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)[٦]، ووسمت بالسبع المثاني لأنها أولا سبع آياتٍ وان خالف بعض الدارسين في ذلك[٧] . وأما لفظ (المثاني) فلأنها تثنى وتتكرر قراءتها في كل ركعة من ركعات الصلاة، وهو يطل بتلك الدلالة؛ بالبعد الخطابي ويسجل المواقف الخطابية التي يتردد فيها نص السورة؛ سواء كان في أوراد الصلاة أم في قراءة القرآن أم في المقامات الأخر التي يشرع فيها قراءة السورة، وكل هذه المغازي تجلو مكانة السورة في النص القرآني وأهميتها في السياق التنزيلي أو السياق المقامي، وهو ما يؤكد أهمية البحث، ويجلو عن دواعي التوافر على دراستها ومقاربتها، ومما يجلو عن مضامين السورة ما ورد في الحديث عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله عزو وجل: قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فأقول:

---

[٥] رواه أبو هريرة، صحيح مسلم، ١/ ٢٩٦، رقم (٣٩٥) .

[٦] من حديث جاء فيه : قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال : ألم يقل الله (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) (الأنفال ٢٤)، ثم قال لي (لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد) ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن، قال : (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) صحيح البخاري، ٦/ ١٧، رقم (٤٤٧٤) .

[٧] شذ عن ذلك الحسن البصري فقال أنها ثمان آيات باعتبار البسملة آية من آياتها، ذهب الحسين الجعفي إلى أنها ست آيات، ومن ذهب إلى أنها سبع آيات فمنهم من عدّ البسملة أنها ليست من السورة، ومنهم من دمج آيتين وجعل البسملة آية منها .

حمدني عبدي، فإذا قال العبد: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾، يقول الله : أثنى عليّ عبدي، وإذا قال العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال الله : مجّدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال الله: هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال: ﴿ اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾، قال الله : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل)[٨].

"وهذه السورة وضعت في أول السور؛ لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن...وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال، وهذه السورة مكية باتفاق الجمهور، وقال كثير أنها أول سورة نزلت، والصحيح أنه نزل قبلها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ العلق١، وسورة المدثر ثم الفاتحة، وقيل نزل قبلها أيضا: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ القلم١، وسورة المزمل. وقال بعضهم هي أول سورة نزلت عند فرض الصلاة، فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها، وقد عُدّت في رواية عن جابر بن زيد السورة الخامسة في ترتيب نزول السور، وأياً ما كان فإنها قد سماها النبي صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب، وأمر بأن تكون أول القرآن"[٩]، فهي أول ما يطلع عليه المطالع في مقاربته للنص القرآني، فترسم له مخطط النص الذي يقبل عليه، كما أنها أول ما يطرق سمع الإنسان، أو الطفل غالبا. في تعلمه للنص القرآني، فتوضح له خريطة الحياة التي سيقدم عليها.

- الأطر العامة التي وردت في السورة :

- الدنيا والآخرة: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۞ اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾. ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾
- الربوبية والألوهية: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
- صفات الجمال وصفات الجلال أي جناحا الرجاء والخوف: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾
- سبيل الهداية وسبيل الضلال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ۞ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

---

[٨] صحيح مسلم، رقم (٣٩٥) .

[٩] التحرير والتنوير، ١/ ١٣٥- ١٣٦ .

- كينونة الفرد والجماعة: ﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (نعبد .. نستعين اهدنا .. صراط الذين أنعمت عليهم).
- الثناء والدعاء : ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ ﴿اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾.
- جهد البشر وعون المولى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
- القوانين المجتمعية والسنن الكونية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
- حقوق المولى وحقوق العبد: (الحمد لله رب العالمين ....إياك نعبد)، (وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم).

المبحث الثاني: القيم الدلالية وأحوال التلقي:

من الجلي أن الدراسة البلاغية للتراكيب العربية المؤلِّفة للنصوص، ذات الصبغة الإبداعية تنبني على الوضع التركيبي والإعرابي الذي يقتضيه علم النحو، إذ إن إدراك المعنى السطحي للتراكيب، ثم المعنى العميق عبر دلالة بلاغية، يستدعي الاستعانة بالأنظمة النحوية، التي تهدينا إلى دلالات عميقة؛ لأن البلاغي يتتبع ترتيب عناصر البنية التركيبية ترتيباً يحكمه النظام النحوي والصرفي الذي يخفي في ثناياه مزايا ومعاني دقيقة لا تنجلي إلا للفاحص الآخذ بناصية اللغة وقواعدها([١٠]).

وإذا كان النحو يبحث في شروط الحذف وضوابطه، من حذف واجب وممنوع وجائز، فإن البلاغة تكشف العناصر المحذوفة من التركيب، فتحددها وتحاول بلوغ دلالتها العميقة وغايتها الفنية والجمالية؛ لأن النحو معيار واصف للغة الطبيعية النفعية، والبلاغة واصفة للغة غير طبيعية يمكن نعتها باللغة الإبداعية، لكن البلاغيين المتأخرين تنكبوا أغراض البلاغة فخلطوا بينها وبين معاني النحو وقواعده([١١]).

وبما أن النص القرآني اشتمل على معالجات لعدد من الأحوال التي تعتور عنصر التلقي، وكانت سورة الفاتحة تمثل عتبة النص القرآني فستقوم الدراسة على مقاربة الدلالات

---

[١٠]) ينظر: وقفات على الدلالة البلاغية للإيجاز بالحذف، ص١٠٦.

[١١]) وقفات على الدلالة البلاغية للإيجاز بالحذف، ص١٠٧.

والمضامين التي انطوت عليها السورة إزاء تلك الأحوال المتعددة التي تكتنف معشر التلقي وتتناوب على أفراده أثناء مقاربة نص السورة، فتتكرر قراءة السورة في كل ركعة من ركعات الصلاة المفروضة على كل مكلف، فمنهم الفقير والغني، والقوي والضعيف، والمسرور والمحزون، والظالم والمظلوم، إلى غير ذلك من الأحوال التي تعتري أفراد البشر في حياتهم بتقلباتها المختلفة، ولاشك أن مستوى تلقي كل صنف من أولئك يختلف باختلاف واقعه المعاش، حيث يسهم الواقع في توجيه الدلالة التي يصل إليها عنصر التلقي في مقاربته للنص، فما يستفيده الغني من النص غير ما يستمده الفقير منه، وما يحصل عليها المظلوم من دلالات تختلف عما تتوارد إلى ذهن الظالم حين مقاربته للسورة، وإن اتفقت الدلالة المحورية أو الرئيسية التي يطل بها نص السورة لدى أصناف التلقي المختلفة.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الاستهلال بـ (باسم الله) وليس لفظ الجلالة بمفرده مكن من ذكر المولى تعالى مرتين؛ مرة في حمولة (اسم الله)، والمرة الثانية في حمولة (الله)، واختيار لفظ الجلالة دون لفظ الرب ليضفي معاني الجلال والتعظيم للكلام الذي استهل به، ويخلع معاني الكمال والحكمة والإحاطة والعلم على مضمونه، ويفضي إلى الثقة في محتواه، كما يلقي في الوقت ذاته مشاعر الرهبة والهيبة في نفس المتلقي المتكبر والظالم والمكذب، ومشاعر الأنس والطمأنينة في نفس المتلقي المظلوم .

وإذا كان لفظ الجلالة يفيض بمعاني العظمة والجلال، ومعاني الجمال واللطف، إلا أنه أعقبه بما يؤكد معاني الجمال واللطف، فأورد أبرز اسم من أسمائه تعالى في هذا الحقل (الرحمن)، ولم يقتصر بإيراد هذا المعنى في صيغة (فعلان) وإنما أكده بإتباعه في صيغة (فعيل) (الرحيم)، ووزن (فعلان) من الصيغ التي تحمل معنى المبالغة في الفعل، فـ(الرحمن) يشمل رحمته في الدنيا وفي الآخرة، و(الرحيم) يختص برحمته بعباده المؤمنين، إلا أن (الرحمن) ؛ اسما

ووصفا ؛ خاص به تعالى لا يطلق على غيره، خلافا لـ (رحيم) فهو خاص به تعالى اسما، ويطلق على غيره وصفا([١٢]).

وورود هذين الاسمين الذين يفيضان في دلالتهما الرئيسية بمعاني الرحمة واللطف، يضفي على نفس المتلقي المظلوم مشاعر الأنس، ويبعث في نفس العبد المذنب مشاعر الأمل وعدم القنوط، وتحفز ذا نزعة الطغيان من المتلقين إلى تشذيب جماح نفسه الطاغية، وتدفعه إلى التخلق بأخلاق المولى تعالى، إلى جانب أنها تغريه على الرجوع عن طغيانه والتوبة والأوبة إلى ربه الرحمن، كما يطل في اسم (الرحمن) بعد تداولي، حيث أن مشركي قريش كانوا ينكرون اعتباره من أسماء الله، كما ورد في قوله تعالى (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) (الفرقان ٦٠)، فورود هذا الاسم في أول وصلة في النص القرآني فيه مواجهة لهم بوصف المولى بما لا يقرونه له، وبما ليس معهودا لديهم، للتأكيد بأن العقيدة السليمة إزاءه مخالفة لما توارثتموه، ومختلفة عما توارد لكم عن أسلافكم، وقد يكون ذلك المعنى من أبرز المعاني التي أباحت به الوصلة الافتتاحية، وخصوصا على قراءة الرفع لـ (الرحمنُ) ([١٣]). أي أن النص افتتح بما يصدم المشركين ويواجههم بما ليس معهودا لديهم إزاء المولى تعالى، ليدفعهم للتخلي عن معتقداتهم، والاستعداد لتقبل مضامين النص المخالفة في كثير منها لمعتقداتهم وما عهدوه.

﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

والحمد " الثناء([١٤]) على الجميل من النعمة أو غيرها مع المحبة والإجلال، فالحمد أن تذكر محاسن الغير سواء كان ذلك الثناء على صفة من صفاته الذاتية كالعلم والصبر والرحمة أم على عطائه وتفضله على الآخرين. ولا يكون الحمد إلا للحي العاقل". وفيه تذكير بالنعم، وتذكير بالمنعم الذي يستحق الحمد والثناء عليها، والخطاب القرآني بـ(رب العالمين) فيه إثبات ربوبيته سبحانه لهذا الكون بجميع عوالمه، ولاشك أن كل صنف من المتلقين لديه ما يدعوه للثناء على

---

[١٢]) ينظر التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، ١/ ١٧٢– ١٧٣ .

[١٣]) قراءة ليست سبعية ولا عشرية، وإنما قرأ بها أبو رزين العقيلي، والربيع بن خيثم، وأبو عمران الجوني:(يُنظر: معجم القراءات القرآنية، أحمد مختار عمر، وعبد العال سالم مكرم، مطبوعات جامعة الكويت، ط(٢) ١٩٨٨م. ١/ ٦.

[١٤]) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص١١.

المنعم تعالى، (الحمد لله رب العالمين) والتعبير تجاوز التقرير المباشر عن ألوهية المولى وربوبيته على العالمين، وتعدته إلى استحقاقه للحمد على ذلك، فجمعت في مضمونها بين الألوهية والربوبية، وهذه الوصلة التعبيرية تكسر غرور الغني بأن ما يملكه لا يساوي شيئا أمام ملك المولى تعالى، كما أن ما لديه من أموال ما هي إلا ودائع لديه فالمالك الحقيقي لها هو المولى تعالى، وتهذب جموح ذوي الجاه والسلطان وتشذب تباهيه بملكه عند شعوره بوجود من هو أكبر منه ملكا وسلطانا، وتعوّض ذا العوز والفاقة بتذكيره بما لديه من نعم قد لا يلتفت إليها تدعوه للثناء على المنعم، وتجبره من زاوية أخرى. بإشعاره أن ما يملكه الأغنياء لا يساوي شيئا في ملك المولى تعالى، كما أن ذلك المال الذي بأيديهم في حد ذاته هو ملك المولى تعالى وأمره بيده، فهو من يجدر به التوجه إليه بالسؤال والطلب، وتؤنس وحشة المضطهد وتجبر كسرة المظلوم باستحضاره سلطان الله على العالمين وأنه المالك الحقيقي للملكوت والمتصرف في كل ما فيه، وتتحصل تلك القيم الدلالية من خلال ذكر من يستحق الثناء على النعم (الحمد لله)، أو ذكر المالك الحقيقي (رب العالمين)، الذي يتعدى ملكه ما لدى المرء أو ما يهمه أمره، إلى العالمين قاطبة.

﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾

سبق ذكر هذين الاسمين الكريمين في البسملة، بيد أن في تكرارهما ترسيخاً للبعد التداولي المذكور آنفا؛ أي التنويه لجيل التنزيل القرشي بأن العقيدة الصحيحة إزاء المولى تعالى مخالفة لما عهدتموه، حيث كرر هذين الاسمين اللذين لم يكن يقر بهما كفار قريش في صلب النص، إضافة إلى أن تكرارهما جاء بعد التأسيس بما سبق من قوله (الحمد لله رب العالمين) الذي احتوى على التعريض بالنعم والملك، أو بمعنى أدق التذكير بواهب النعم وصاحب الملك للعالمين، ليشعر جيل التلقي الأول أن صفة الرحمن التي ينكرونها ليس متوقفا على إقراركم، وأن شأنه ليس خاصا بكم، بل إنه ربٌّ للعالمين، وهذا يوضح مغزى التكرار بعد (الحمد لله رب العالمين)، كما أن المعهود حيال العنصر البشري أن من كان لديه أدنى منّة على أيٍّ من الخلق، أو من امتلك رقعة بسيطة على وجه البسيطة، أن يتملكه الغرور فيورثه ذلك قسوة، ويداخله بفعل ذلك قدر من الجفاء والخشونة في التعامل مع الآخرين، إلا أن شأن المولى تعالى خلاف ذلك، فهو مع عظيم مننه وعظيم ملكه (الرحمن الرحيم)، وهذا التصور يحدو بعناصر التلقي بكل

صنوفهم للطمع فيما لدى المولى تعالى من نِعَمٍ وعَرَض دنيوي، كما أن مجيء هذين الاسمين . من زاوية أخرى . هنا بعد قوله (رب العالمين) التي توحي بالقوة والملك والسيطرة، يبعث التوازن في نفس المتلقي بين الترهيب والترغيب، والقوة واللين، ويبث مشاعر التبشير والرجاء بعد الحديث عن السيطرة والملك، وماذا تتوقع حين يفاجئك الحديث بأن المالك للكون المتحكم المسيطر على الملكوت، ومن بيده أمرك وحالك هو رحمن رحيم. " فالمعنى أوجب الحمد لله ([١٥]) لأنه الرحمن الرحيم قلت إنما كرر لأن الرحمة هي الإنعام على المحتاج وذكر في الآية الأولى المنعم ولم يذكر المنعم عليهم فأعادها مع ذكرهم وقال رب العاملين الرحمن لهم جميعا ينعم عليهم ويرزقهم الرحيم بالمؤمنين خاصة يوم الدين ينعم عليهم ويغفر لهم".

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

الانتقال من الحديث عن رحمة المولى إلى ملكيته ليوم الدين يضفي عددا من الإيحاءات، من أبرزها الإفاضة بنفحات تلك الرحمة في ذلك اليوم الذي يمتلكه، الذي هو مِلْكُه أو مَلِكُه . على أيٍّ من القراءتين . والانتقال بالمتلقي من الحديث عن رحمة الله إلى الحديث عن كون ذلك المولى الرحمن هو المالك ليوم الدين يبعث في نفس المتلقي المقبل طمأنينة وراحة إزاء ذلك اليوم، ويزيده طمعا في ما لديه ويغريه على الإقبال على مولاه الرحمن ليهب له من ملكه الدنيوي الذي سبق حديث النص عنه، ومن ملكه الأخروي الذي ذكره النص لاحقا. ومجيء ذكر يوم الدين والمالك له سبحانه فيه عزاء لذوي المظلمة من عناصر التلقي بأن هناك يوما سيتمكنون فيه من القصاص من الظالمين، وإغراء لذوي الحاجة للتوجه إليه مادام بيده ملك العالمين وملك يوم الدين، وجبر لذوي العوز والفاقة عما فاتهم من متاع الدنيا بأن مآل الدنيا إلى زوال وأن هناك حياة أخرى سيتنعمون فيها إذا ما عملوا لها، وردع لذوي الظلم بأن ظلمهم لن يستمر، وأن هناك موئلا للجزاء على الظلم والقصاص للمظاليم منهم، وزجر لذوي الآثام بأن هناك مقام للحساب والعقاب، وتزهيد لذوي المال والغناء بأن ما يملكونه من متاع الدنيا زائل وأن هناك حياة أخرى تتطلب منهم البذل والإنفاق، وطمأنينة لذوي الإيمان والتقوى بأنهم حتما سيلاقون أجر أعمالهم وثواب طاعاتهم، كما يتضمن ذلك تطمينًا لمن شارف على الانتقال للدار

[١٥]) أسرار التكرار في القرآن، ص١٩.

الآخرة، حين يطالع السورة فيستحضر بأن الحياة التي يخشى الانتقال إليها هي ملك المولى ذي الرحمة الواسعة.

أما من ناحية تراكمية الدلالة في النص فبعد أن لفت نظر المتلقي للدنيا وإلى المسيطر على ملكوتها وما يجب على العباد إزاءه فيها من التوجه إليه بالحمد والثناء، ثم عرفهم بنفسه تعالى بأنه الرحمن الرحيم، ليغريهم على الإقبال عليه ثناء وحمدا وسؤالا، أردف بلفت أنظارهم إلى الجانب الأخروي ويوم الدين الذي يملكه، كي لا تتمحض أنظار المتلقين إلى الدنيا فقط، ولئلا تتجرد دوافعهم في الإقبال على المولى تعالى بالعَرَض الدنيوي، كما أن مجيء ذكر يوم الدين عقب الحديث عن رحمته تعالى تدعيم للرجاء بالخوف، وتسوية لمنطق التوازن بين الترغيب والترهيب، ليكتمل من ثمّ بناء المنظومة التربوية في نفوس المتلقين بمختلف أحوالهم وشتى أصنافهم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

بعد أن طاف بذهن المتلقي حول المالك للدنيا، وما يتصف به من الرحمة، وأنه المالك للآخرة، أردف ببيان ما يجب على المتلقي القيام به حيال ذلك، ألا وهو التوجه إليه بالعبادة وقصده بالسؤال، وأنه وحده لا سواه الحقيق بذلك، وقد جاء التعبير بالصيغة التي تحكي عن عناصر التلقي، معبرا عنهم بضمائر التكلم الملتحمة بالأفعال المضارعة، ولا يخلو ذلك من حمل تلك العناصر باختلاف أحوالها على التلبس بذلك وتمثل تلك المضامين حتى ولو بنسب متفاوتة، وقد جاءت هذه الوصلة التعبيرية كنتيجة طبيعية إن لم تكن حتمية، أو تراتبية لعبارات السورة السابقة، وقوله: (إياك نعبد) قد تجبر على فرز عناصر التلقي في مسارين لا ثالث لهما؛ إما في مسار الاستجابة الإيجابية، وإما مسار الاستجابة السلبية ، فتزوي المتلقي للانخراط في أيٍّ من المسلكين؛ إما التقبل الإيجابي وإما النفور والتلقي السلبي، أما قوله: (وإياك نستعين) فإنها تلهم المتلقي الإيجابي للإقبال على مولاه والاستعانة به في العبادة، كما أنها تعالج عللا تختلف عن العلل التي عالجتها العبارة الأولى في الآية أو التي تناولتها مضامين الآيات السابقة، حيث تعالج عللا جديدة عادة ما تنشأ لدى عناصر التلقي الإيجابي، ويكون مظنة نشوئها من مسلك العبادة وليس من عدم الإقبال عليها، ألا وهي علة الغرور أو العجب بالطاعة، فجاءت هذه الوصلة

النصية لتعرف المتلقي بأنه في عبادته إنما يقوم بها بمعونة المعبود تعالى وتوفيقه إياه، مما يخفف من عجبه بعمله ويقلل من الدور الذي يعزوه لنفسه في القيام بالطاعات، أما ذوو الظلم من أصناف التلقي فإنها تكسر جموحه غروره بقوته، فمطالبته بالعبادة بحد ذاته فيه تهذيب لنفسه المغرورة بأنه مهما كان مستوى استجابته لهذا التوجيه المتضمن لم ولن يتجاوز مرتبة العبودية، وتوحي له بان هناك قوة أكبر من قوته وأن القوة التي بحوزته ما هي إلا منحة من مولاه تعالى الذي يستحق منه العبادة، فهو مهما كانت قوته لم يعدُ كونه عبدا للقوي تعالى، كما أن قوله تعالى (وإياك نستعين) فيه تنويه للمتلقي المغرور بأنه على الرغم مما بيده من القوة لا يزال مفتقرا للعون، وفي ذلك تلويح بعجزه، ومن ثمّ حثه على طلب العون ممن بيده العون في سائر الأمور. "وقد كرر – سبحانه – (إياك) وقدمه ولم يقتصر على ذكره مرة كما اقتصر على ذكر أحد المفعولين في آيات كثيرة؛ لأن في التقديم فائدة وهي قطع الاشتراك ولو حذف لم يدل على التقديم؛ لأنك لو قلت إياك نعبد ونستعين لم يظهر أن التقدير إياك نعبد وإياك نستعين أم إياك نعبد ونستعينك، فَكَرَّرَ"([١٦]).

﴿اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾

الدعاء بطلب الهداية ينطوي على الرغبة في ذلك أولا، ويحتوي بشكل ضمني بذل أسباب الهداية من جانب الداعي، كما يشي مضمون هذا الوصلة الإنشائية بأن الداعي لمّا يدرك ذلك الصراط أو أنه مجانب للصراط المستقيم لحظة الدعاء، كما أن هذا الدعاء ينم عن دلالة العجز لدى الداعي بأنه لا يملك هداية نفسه، وفيه تنويه بنفس المتلقي السلبي أنه مهما بلغ شأوه أو قوته أو ماله فلا يستطيع أن يوفر لنفسه مسلك الهداية بمعزل عن توفيق مولاه وهدايته، فلا يزال مفتقرا لمولاه في إدراك سبيل النجاة، أما المتلقي الإيجابي فتشعره الآية بأن الطلب في حد ذاته هو من صميم مسلك الهداية ومن أبرز مقتضياتها، ولذا فلا يزال ولن يزال داعيا مولاه لإدراك ذلك وإلهامه إياه، لا ينفك عنه السالك في أي مرحلة من مراحل الاهتداء، كما أن تكرار استحضار هذا الدعاء حتى بعد بلوغ مسلك الهداية فيه إشعار بأن السالك لا يزال على خطر عظيم، كما أنه لن يبلغ على ذلك بحنكته وفضله، فهو لا يستغني عن هداية مولاه سواء في

[١٦]) أسرار التكرار في القرآن، ص١٩.

إدراك ذلك الطريق أو في ملازمته والثبات عليه، مما يزيد نفس المتلقي خضوعا وإقبالا على مولاه، وينفي عن عنصر التلقي مشاعر العجب والغرور، فإدراك مسلك الهداية يحتاج إلى هداية، كما أن الاستمرار على طريق الهداية يحتاج أيضا إلى هداية، ولا ريب أن هذا الدعاء يشعر المتلقي من ذوي الثراء بأنه لا يزال هناك جانب مفتقر إليه، ولن يبلغه بماله مهما تعاظم ثراؤه، مما يستلزم منه الاجتهاد في التقرب لمولاه وتمثل هذا الموقف الخطابي للحصول على هدايته، ويدفعه من ثمَّ للبذل والعطاء في سبيل نوال ذلك الصراط وبلوغه، أما المتلقي المعدم وذوو الحاجة فتحرف نظره عما كان منشغلا به من الحصول على المال، وتلفت انتباهه إلى ما ينبغي عليه السعي وراءه وطلبه، وأن الحصول على تلك الهداية عزاء له عما يفتقر إليه من المال والجاه، ومجيء التعبير بالصيغة الجمعية (اهدنا) تشعر المتلقي بأهمية السلوك الجمعي والتوجه المجتمعي في حمل الفرد وإعانته على سلوك مسلك الهداية، وقوله (المستقيم) يتاخم الاستقامة التي تعني الثبات بمعاونة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (فصلت٣٠).

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾

لم يكتف النص بإطلاق لفظ الصراط، بل قيده أولا بوصف المستقيم، ونظرا لأن ذلك القيد لا يعدو أن يكون محددا نظريا مجردا، فقد أضاف قيدا آخرا متصلا بالجانب العملي، ومتجسدا في عنصر بشري، ولكنه خفف أثر الصبغة البشرية من خلال الوصف الذي وصف به هذا المكون (الذين أنعمت عليهم)، حيث عبّر عنهم بأنهم المنعم عليهم، عازيا الفضل الذي حازوه إلى نعمة الله، وقد آثر النص هذا التعبير في وصفه إياهم، ليخفف من دورهم في إدراك ذلك الصراط ويسلب المزية عن ذواتهم، وكذلك للوحي بعدم اقتران ذلك الصراط بجنس بشري بعينه، بل هو مرتبط بنعمة المنعم تعالى، وأنه ليس خاصا بسلالة بشرية معينة، بل المجال متاح لكل جنس أو فصيل بشري من أجيال التلقي بأنه قد يدرك تلك النعمة، ونظرا لأن تمثل هذا النص وترداده مستمر من سائر معشر التلقي بما في ذلك المنعم عليهم يعطي إشارة بأنه قد يكون المرء منعما عليه أي ممن أدرك الصراط، وهو في الوقت ذاته داعيا ربه التوفيق لإدراك هذا الصراط والهداية لمسلك المنعم عليهم، بمعنى آخر أن استمرار البحث عن ذلك الصراط هو من مقتضيات أن يكون الإنسان من المنعم عليهم، كما أن استمرار تمثل هذا الدعاء من أجيال التلقي بكل أصنافهم بما في ذلك طائفة التلقي الايجابي فيه تحريض على اتهام النفس، وعدم

الركون إليها، وعدم الاطمئنان إلى حالها مهما بلغ مستواها في مصاف الترقي الإيماني، مع أن مجيء النص بذكر العنصر البشري يدفع ذا الجاه والظلم إلى تلمس ذلك الصراط والبحث عنه في البعد الواقعي، بيد أن مجيء التحديد لهذا العنصر البشري بهذه الصيغة التجريدية قد يغري عناصر التلقي السلبي بتوهم أنهم هم المنعم عليهم، وأنهم قد بلغوا مصافهم وأدركوا صراطهم، وفقا لما يحكي عنهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعا﴾ (الكهف١٠٤)، واستدراكا لذلك الشعور فقد أردف النص بقيود أخرى على المنعم عليهم، ليضفي تلك القيود من ثمّ على صراطهم القويم.

﴿ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾

عمد في سَوق مصفوفة التوصيف للصراط للتدرج في تضييق قيوده المضروبة، فبعد أن أورد الوصف الموجب، أورد الوصف المحكوم بالسلب، لينفي عن هذا السبيل أي دخائل قد تتوهم حالها فيه وهي ليست منه، فنفى عن هذا الصراط مسلك من حق عليهم غضبه ومن سلك سبيل الضلال، ومع أن مسلك المغضوب عليهم قد لا يختلف عن سبيل الضلال وأهله، لكن التوزيع جاء ليشمل كل الأفراد الذين قد لا يستوعبهم أيّ لفظ منهما بمفرده في حمولته، فقد يبدو في ظاهر الفرد أنه مجانب لسبيل الضلال ولكنه قد لا يسلم من غضب المولى تعالى، لما يداخل نفسه في أثناء أدائه للطاعات أو لما يقصده من وراء أدائها. واختتام النص بالنفي المتسلط على مضمون هذه الوصلة التعبيرية، يدفع فئة التلقي الإيجابي إلى توقي ذلك، والابتعاد عن سبيل هذين الصنفين، وتولد في نفس ذي الحاجة والفاقة شعورا بالارتياح إذا ما سلم من شوائب هذين المسلكين، فتعوضه عما يختلج نفسه من مشاعر الأسى الناجم عن الافتقار للمتاع الدنيوي، أو التعرض لمظلمة بشرية، كما يوحي إلى فئات التلقي السلبي إلى أنهم لم يبلغوا صراط المنعم عليهم وهم لا يزال فيهم أيُّ سجية أو خلق من الأخلاق التي توجب غضب المولى أو تجعلهم من أهل الضلال، فتدفعهم للقلق على أحوالهم، وتحملهم على إعادة النظر في التعاطي مع ما لديهم من أموال أو جاه أو سلطة عارضة، وتحرف بوصلة اهتمامهم من اللهث وراء المتاع الدنيوي إلى التخلص من موجبات الغضب وقيم الضلال، والتخلي عن كل ما يحدو بهم إلى أيٍّ من المزلقين.

فقد أفرزت السورة معشر التلقي في ثلاثة أصناف: المنعم عليهم، المغضوب عليهم، الضالين، المنعم عليهم الذين حظوا بهداية الرحمن لسلوك السبيل المستقيم، والضالون الذين سلكوا سبيل الضلال، وأما المغضوب عليهم فمن بدا على ظاهره سلوك سبيل الهداية ولم يخلص لذلك باطنه، ومجيء الحديث عن هذه المسالك مدمجا في عناصر بشرية يلوّح بتأثير الجماعة أو الرفقة الذين يحيطون بالمرء في إيراده مسلكهم، وانسياقه وراءهم.

المبحث الثالث: البُعد القِيَمي في النص:

تنبع أهمية القيم لأفراد المجتمع من كونها تحكم حياة البشر، وتوجههم لما فيه صلاح حياتهم، فهذه القيم تتغلغل في حياة البشر أفرادًا وجماعات، ولا يخلو أي مجتمع من تلك القيم، وتقدر مكانة الأمة وعظمتها بمقدار تمسكها بقيمتها، والحياة الاجتماعية تكون مستحيلة بدونها؛ ونظرًا لأهمية القيم وحيويتها فقد اهتمت بها الديانات والفلسفات والتنظيمات الاجتماعية والسياسية والدراسات والبحوث التربوية، واختلفت وجهة نظرهم في إدراك طبيعة القيم وغايتها وخصائصها ومصادرها، وقد سبق القرآن الكريم الحضارات الغربية بأحد عشر قرنًا، فكانت رسالته منهاجًا لتربية الإنسان، فهو مليء بالقيم والمبادئ والمثل العليا.[١٧]

وتُستمد القيم من القرآن الكريم، وهي موجودة فيه بصور عديدة وأساليب مختلفة، ودراستها تساعد في حل الكثير من المشكلات والصعوبات التي تعترض الإنسان، ومن خلالها تتحقق أهداف الفرد والمجتمع؛ فهي تربي النفس البشرية، وتؤثر إيجابًا على العقل والتفكير، فتثير الفهم والإدراك والإقناع.

(بسم الله الرحمن الرحيم) تتضمن دلالة البركة بالافتتاحية، وتحتوي طلب الاقتفاء بالافتتاح بها، وفيها تلويح بأهمية ما يليها وما تفتتحه، واصطحاب مضمون تلك الافتتاحية في أثناء مقاربة النص، (الحمد لله) الثناء وطلب التمثل به وتكراره، (رب العالمين) الإقرار له بذلك، وإحالة الأمور إليه، والتوجه بالسؤال له في كل مظروف العالمين، (الرحمن الرحيم) الرجاء لرحمته، والتحلي بالرحمة (مالك يوم الدين) الخوف من ذلك اليوم، ورجاء مالكه إزاءه، والاستعداد

[١٧]) ينظر: القيم التربوية في قصص سورة الكهف، ٢٧.

لذلك اليوم بالإقبال على الطاعات المقربة من مالك . ومَلِك . ذلك اليوم تعالى، (إياك نعبد وإياك نستعين) بعض الدارسين جعله دعاء جاء في الصيغة الخبرية، واستحضار أن النص كلام الله، وجاء يتحدث بحال العبد في مخاطبته إياه يشحن التعبير بالحمولة الإنشائية التي تطل بدلالة الإلزام، ويؤكد منزلة هذا الكلام وهو ما يرسخ بالتالي دلالة الثبوت له، ويجزم بتحقق مقاصده، سيما ومصدره من عنده تعالى ومَخْتَمه إليه في مساقات العمليات التواصلية المتتابعة، أو السياقات الخطابية المتسلسلة التي جاءت الآية لتحققيها، فهي صادرة من عند المولى تعالى أنزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم ليبلغها لعناصر التلقي، كي يخاطبوه بها تعالى، حتى يتقبلها منهم ويحظوا بمرضاته، وتفوح وصلة (إياك نعبد) بمبدأ الإخلاص فيما يقوم به العبد، كما تتضمن رفع ما يتعلق بالعبد لمولاه، وتفوح الصيغة الجمعية للعبارة إلى أن البعد الجمعي ؛ في مضمونها وفحواها ؛ يعتبر مطلبا إن لم يكن واقع حال معاشا، وتترشح من مقارنة العبارة بالوصلة المسبوكة بها مع تدعيم الصيغة الجمعية؛ دلالة صبغ الحياة الاجتماعية وفق الصبغة التي يبغيها المولى تعالى، من أسلمة الحياة البشرية، وتشكيل القوانين المجتمعية وفق ما يرضاه الله ويحقق له العبودية، وقد تفوح هذه الوصلة بالدلالة الإخبارية، فيتوارد منها دلالة المن بالعبادة، بيد أن سبكها بوصلة (وإياك نستعين) ينفى ذلك الملمح وينأى بها عنه، ويجردها لما سواه من المعاني الإيجابية، كما أنه يوجه دلالة التخصيص التي تتشكل من خلال بنائها التركيبي في منحى الإخلاص، وأما وصلة (وإياك نستعين) فتتضمن استنزال ما يتعلق بالمولى تعالى، وطلب المدد الرباني، واستلهام عونه في استكشاف السنن والنواميس التي أودعها في الكون والعالمين، لاستثمارها في تحقيق مضمون الوصلة الأولى في الآية، أي في تطوير حياة المتلقي ورفاهيته، وتوفير حماية مشروعه التعبدي لضمان استمراره، فسبك هذه الوصلة بما قبلها يطل بدلالة طلب العون في تحقيق مضمون العبادة على المستوى الجمعي المشتمل للمستوى الفردي، (اهدنا) دعاء وطلب الهداية، والصيغة الجمعية تشي بالمسلك الجماعي والواقع المجتمعي، فتتم فحوى تلك الصيغة بدلالة الطلب لتحقيق ذلك البعد، كما أن في ذلك تنويها بدور السلوك المجتمعي في تسديد هداية الفرد، كما أن ذلك يرسي الروح الجمعية لدى الفرد، بحب الخير الذي يبغيه لنفسه لأبناء مجتمعه، ويبدأ مطلب الهداية بتحقيق العبد لهذا الموقف الخطابي الذي يطلب فيه الهداية من الهادي سبحانه وتعالى له وللآخرين، (الصراط المستقيم) اللفظان يطلان بدلالة الطلب لذلك

المسلك والحرص على التماسه، كما يوحيان بأن هناك صراطا غير سوي وسبيلا غير قويم ينبغي أن يتحاشاه الإنسان الطالب الهداية، وأما قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) فيحمل بتشخيصه البشري دلالة حضور هذا الفريق ومثوله في سياقات التلقي المطردة ليوم الدين، وهو ما ينطبق بالتالي على حضور الأطراف الواردة في قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

تناول الحديث في بداية السورة بعض القضايا العقدية، إلا أنه يلحظ أن الحديث فيها عن المولى تعالى كان في محيلات الغائب، كون الجانب العقدي . وإن كان موطنه داخليا أي في باطن العبد . إلا أنه في تشكله يحتاج لمزيد من الإثبات ونفي ما عداه، ومحاججة كل شائبة ودحض كل شبهة ترد على ما يعتقده العبد نحو مولاه، مما يرشح أن يكون الدور الخطابي في مثل تلك السياقات منوطا بعنصر التلقي، وإن لم يكشفها أو يبينها النص، ولهذا عندما انتقل إلى الحديث عن العبادة والدعاء، كان حضور المولى تعالى في ضمائر المخاطب، في حين وزع عناصر التلقي بين ضمائر التكلم، وبين محيلات الغياب التي انتظمتها المحيلات الضميرية أو الموصولية أو الوصفية، مما ينبئ بأن العقيدة تستدعي مواجهة العباد بها، بينما تقتضي العبادة والدعاء التوجه إلى الخالق سبحانه ومخاطبته فيها.

المبحث الرابع: المناسبات الدلالية بين وحدات النص:

تختلف صورة المقال من مقام لآخر، فلكل مقام أسلوبه الخاص، كما أن له تراكيبه القائمة على ارتباط النحو والمعاني في شكل جميل، والمقام هو ذلك الموقف الذي يتطلب نوعًا من الألفاظ، التي تتجاور بطريقة معينة كي تفي بالمراد، كما يتمثل في الموقف والعلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تلابس الموقف وقت أداء المقال، ولذا يعتبر بناءً على ذلك مركزًا من مراكز علم الدلالة، ويعتمد المعنى الدلالي على هاتين الدعامتين (المقام والمقال) اعتمادًا كبيرًا؛ لما بينهما من علاقة تضامنية توضح المقصود منهما، والمعنى المقالي يتكون من

معنيين: المعنى السياقي، والمعنى الأساسي، ويضاف إلى ذلك المحددات الدلالية المقالية كلما وجدت.([١٨])

من خلال اسمها نعرف مناسبة افتتاح القرآن الكريم بها، فهي فاتحة الكتاب، بها ابتدأ ترتيب سوره؛ لما فيها من أغراض عظيمة سيقت لأجلها، فقد أثبتت استحقاق الله لجميع المحامد وصفات الكمال، وإثبات صفات الربوبية والألوهية له، وأنه وحده مالك يوم الدين، واستحقاقه بالعبادة والاستعانة ولزوم صراطه المستقيم وهو صراط المنعم عليهم الذين علموا وعملوا، ومجانبة صراط أهل الجحيم الذين ضلوا بجهلهم فعملوا على غير الرشاد والذين علموا ولم يعملوا بمقتضى علمهم وهم المغضوب عليهم، لقد شملت هذه السورة كل أنواع التوحيد؛ الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ولزوم منهج أهل السنة ومفارقة مناهج المبتدعين.([١٩])

وجاء بالحمد والثناء قبل الصفات للإشعار باستحقاقه تعالى للحمد ابتداء، وجاء بلفظ الجلالة قبل (رب العالمين) لتقرير أن الألوهية هي المقصد من الربوبية، وهي الغاية منها، واتبع ربوبيته على العالمين برحمانيته تعالى، ثم جاء بالرحمة قبل الحديث عن يوم الدين، لاستحضار مقتضى رحمته تعالى في خلال تصور ذلك اليوم، وترشيد الرهبة منه، ولاستدعاء موارد الرجاء قبل دواعي الخوف، كما أنه أتبع الحديث عن يوم الدين بالحديث عن عبادة الإنسان، لاتصالها بذلك اليوم كون الجزاء على الاستجابة التعبدية سيكون في ذلك اليوم، ولاستثمار الخشية وتوجيه الوجل الناشئ من رهبة ذلك اليوم في الإقبال على الطاعات وترجمته بالانقياد التعبدي، ولتوضيح أن العقيدة قبل العبادة، ولتأسيس العبادة بناء على تصور العابد نحو المعبود على ضوء تلك الأوصاف التي وردت قبل ذلك في السورة، ولذلك جاء التنزيه والوصف للمولى تعالى في محيلات الغائب ثم التفت عند الحديث عن العبادة والدعاء إلى الحديث عنه في ضمائر المخاطب؛ لأن التوصيف العقدي مبني على الغيب وعدم الإدراك، في حين أن الشعائر التعبدية تقتضي استشعار حضوره ومراقبته تعالى، واستحضار معيته واطلاعه بالخطاب، ثم أنه ذكر العبادة قبل العون لعدد من الملامح: ما سبق الحديث عنه لاستدراك المنازع السلبية التي قد تنشأ لدى الإنسان العابد في غمرة انهماكه في العبادة، وكذلك للتعريض بالتتابع الواقعي بأن على

---

[١٨]) العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي، ١٨.

[١٩]) دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ١٥٠.

المكلف أن يشرع بتنفيذ ما يناط به ليستحق تنزل عون المولى بعدئذ، مما يجعل العبادة قربة يقدمها العبد ليتوسل بها في نوال عون مولاه، ومنها التلويح بانطلاق النواميس الكونية في التطور العلمي على الأساس العبادي للواهب سبحانه الذي منح البشر تلك الآفاق.

أما مجيء مطلب الهداية عقب العبادة والإعانة مع أن الترتيب على أرض الواقع قد يرشح خلاف ذلك الترتيب فذلك لعدة ملامح؛ للإيحاء بضرورة الهداية بعد الشروع في العبادة، فقد يشرع العبد في عبادة مولاه ثم ينحرف فيها شيئا فشيئا، وليعزز ملمح الإعانة المتعلق بالوصول للأسباب المادية المدمجة في الكون لترشيدها كي لا تكون عاملا لغواية الإنسان وإعراضه أو ضلالته عن الصراط القويم.

أما مجي القيد الوصفي (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) بعد (الذين أنعمت عليهم) للتلويح بأن النعم تحتاج لاحتراس، فقد يكون بسطها وإدراكها مظنة لانزلاق العبد لمسلك الغواية الموجبة لغضب المولى تعالى أو الزيغ والضلال، إن لم يتداركه توفيق مولاه وضمير تقواه.

الخاتمة:

يمكن إيجاز أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة في النتائج الآتية:

- تضمن هذه السورة العظيمة على المبادئ العامة التي يحتوي عليها النص القرآني.
- مناسبة نص السورة لأحوال التلقي المختلفة ولأجياله المتعاقبة، وتفاوت الدلالات المستقاة من السورة من متلق لآخر.
- أفرزت السورة معشر التلقي في ثلاثة أصناف: المنعم عليهم، المغضوب عليهم، الضالين، المنعم عليهم الذين حظوا بهداية الرحمن لسلوك السبيل المستقيم، والضالون الذين سلكوا سبيل الضلال، وأما المغضوب عليهم فمن بدا على ظاهره سلوك سبيل الهداية ولم يخلص لذلك باطنه.

- لكل مقام أسلوبه الخاص، كما أن له تراكيبه القائمة على ارتباط التركيب والمعاني في شكل متآزر، فمن ذلك ورود أسماء الله وصفاته العلى في الجزء الأول من السورة بدءًا بالتسمية؛ لإفادة التعظيم والتقديس لذات الله سبحانه، كونها السورة التي تتردد في كل يوم، وفي كل

صلاة للعبد يقفها أمام ربه. بينما تغير الخطاب بعد ذلك إلى مقام الخطاب من العبد إلى الله (إياك نعبد وإياك نستعين) وهذا هو مقام العبادة؛ إذ العبادة تقتضي الدعاء والتوجه إلى الخالق سبحانه ومخاطبته فيها.

- ثراء نص السورة بالأبعاد القيمية والمضامين السلوكية المتعددة.
- اتساق آيات السورة وترابط وحداتها، وقيام ترتيبها وفق نسق دلالي تراكمي وثيق.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أسرار التكرار في القرآن: محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة– مصر، ط٢، ١٣٩٦هـ.
- الإعجاز النفسي في الخطاب القرآني (دراسة استقرائية تحليلية): قويدر قيطون، رسالة دكتوراه، كلية الآداب اللغات، جامعة قسنطينة ١، الجزائر، ٢٠١٥م.
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، خلود العموش، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٨م.
- دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم (دراسة تحليلية): د. منير محمود المسيري، مكتبة وهبة، القاهرة– مصر، ط١، ٢٠٠٥م.
- صحيح البخاري: تحقيق: محمد ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ..
- صحيح مسلم: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، د.ت.

- العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي (دراسة تطبيقية): د. عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، مصر، ط١، ١٩٩٩م.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ط٣، ٢٠٠٣م.
- معجم القراءات القرآنية، أحمد مختار عمر، وعبد العال سالم مكرم، مطبوعات جامعة الكويت، ط(٢) ١٩٨٨م.
- مجازات النداء وحقيقته وأغراضهما في الخطاب القرآني: د. ظافر بن غرمان العمري، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد ٦، ذو الحجة، ١٤٣٩هـ.

- الرسائل العلمية.

- إبلاغية الخطاب القرآني من منظور لسانيات النص، دراسة في سورة البقرة، رسالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خضير بسكرة، الجزائر.

- القيم التربوية في قصص سورة الكهف (دراسة تحليلية مقاصدية): معروف سعاد، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان– الجزائر، ٢٠١٤م.

- الدوريات.

- الاتساق التداولي في الخطاب القرآني، محمد لهلال، مجلة جامعة بيشة للعلوم الإنسانية والتربوية، العدد(١) مارس ٢٠١٨م.

- وقفات على الدلالة البلاغية للإيجاز بالحذف: بوجمعة جمي، (جذور) مجلة فصلية تعنى بالتراث وقضاياه، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السنة الثامنة، العدد ١٨، ديسمبر ٢٠٠٤م.